مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ قُرَيْشٍ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة قريش

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة قريش

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾

ابتدأت سورة قريش بشد الانتباه والعقل إلى ما أنعم الله تعالى به على قبيلة قريش من رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام. فقال الله تعالى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ يُظهر الله تعالى نعمته على قريش بإيلافهم واجتماعهم آمنين في بلدهم، وراحلين في رحلتين تجاريتين عظيمتين. وقد جاء الافتتاح بنظم فريد، حيث قَدَّم تبارك وتعالى بهذا السياق البديع المعمول به على عامله. فقدم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ على عامله الذي هو ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ فليعبد هؤلاء رب هذا البيت الذي جعلهم يألفون رحلة الشتاء والصيف في أمان من ربهم تبارك وتعالى. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه قيل في معناها: فليعبد هؤلاء رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، لأنهم كانوا في الرحلتين آمنين، وإذا عَرَض لهم عارض، قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يُتَعَرَّض لهم[١] فكان تقديمه لإظهار الاهتمام والعناية القوية بأن كل ما بعده من بيان مترتب عليه. وهذا من بلاغة البيان في التقديم والتأخير، بأنه لغرض بياني عظيم. فنعمة هذا الإيلاف تستدعي وتستوجب توحيدهم لربهم، وإبطال الشرك، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر تبارك وتعالى نعمة إيلافهم هاتين الرحلتين الآمنتين، والمربحتين. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ أي: أن إيلافهم وإلفهم رحلة الشتاء والصيف دليل على عظيم النعمة التي تستوجب منهم عبادة رب هذا البيت عَزَّ وجل.

فليعبدوا رب هذا البيت للحجة والآية القائمة عليهم بنعمة هذا الإيلاف الذي تعودوا عليه من غير ما يشعرون بمشقة تلك الرحلة الطويلة، ولا يكدرهم شيء، ولا يخيفهم ما يمنعهم عن مرادهم، فمجرد أن يقولوا لمن يعترضهم: نحن أهل حرم الله تعالى. ينصرف عنهم مهابة من الله تعالى الذي أهلك أصحاب الفيل. مما يبين أن

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٤/٨)

إهلاك أبرهة ومن معه من الجند والفيل، قد سار بين الناس في كل مكان. وأصبحت الناس تهاب البيت الحرام وأهل هذا البيت.

فإن دلالة ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ ﴾ تأكيد ومزيد بيان للإيلاف الأول ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴾ وهو إيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، ونقل التجارة بينهما، لتوسطهم بين الشمال والجنوب.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما استوجب هذا الإنعام العظيم من عبادته جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾ فإن هذا يلزمهم عبادة الله تعالى وحده لا شريك، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يبين أن واجبهم أن يتأملوا هذا الإنعام الذي هو آية من آيات الله تعالى، إذ تبين وتأكد لهم أن الله تعالى هو رب هذا البيت، وأنه هو حاميه، وحامي أهله من غيرهم. فجعل مكة بلداً آمناً.

ومن دقائق السياق أن أظهر البيان الكريم العلاقة الترابطية بين توحيده عَزَّ وجل، وبين شأن البيت ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾ فقد نسب ربوبية البيت له جَلَّ جلاله، فأوجب ذلك أن يفردوه عَزَّ وجل بالعبادة، وأن لا يشركوا به شريكاً، وأن يُطِيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ازداد بيان الامتنان منه تبارك وتعالى توضيحاً وبياناً، فقال جَلَّ شأنه، وعظم سلطانه ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ فربكم هو الذي أنعم عليكم بأن أطعمكم مما كنتم فيه من الجوع، وذلك برحلتين عظيمتين، فتجلبون بها الأطايب مما يكون في اليمن وما يكون في الشام. والأمن الذي تعيشونه من بين القبائل قاطبة. كما ورد في سورة إبراهيم عن دعائه عليه الصلاة والسلام لمكة؛ بأن تُجلَب إليها الثمرات ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ فأصبحت مكة، الوادي، غير ذي زرع تأتي إليها الثمرات من جميع أنحاء الدنيا، ومن جميع الأصناف والأنواع، فلا تغيب عنها محاصيل الصيف والشتاء، بفضل الله تعالى. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ أي: رجاء أن يتحقق منهم الشكر لربهم عَزَّ في علاه، والثناء عليه على ما أنعم به عليهم، سواء ما كان من الثمرات، أو الأمن، أو ما أنعم به عليهم من السكن بمكة مع رفعة منزلة المكان.

وكذلك قال تعالى في سورة القصص ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فتُجمَع وتُجلب إلى مكة ﴿ ثَمَرَٰتُ ﴾ وهي جمع ثمرة، لتفيد الكثرة والتنوع ﴿ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ فأكد سبحانه وتعالى التنوع

من ﴿ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ فجمع لهم تبارك وتعالى بين التنوع والكثرة، من الأماكن المجاورة لهم، والتي يمكنها إيصال ثمراتها إليها. وسماه ﴿ رِّزۡقٗا ﴾ ليفيد الإنعام والتخصيص لهم به. ثم أضاف هذا العطاء إليه سبحانه وتعالى ﴿ مِّن لَّدُنَّا ﴾ تعظيماً وتبجيلاً لهذا الإكرام الذي يستوجب الطاعة والانقياد والانكسار للحق الذي جاءهم من ربهم الذي أنعم به عليهم، مع هذا التشريف الكريم، والأمن الذي يعيشونه من بين القبائل قاطبة، والتي تكثر فيها الغارات والمنازعات فيما بينها. مما يبين سعة عطاء الله تعالى، وأنه إذا أعطى أجزل في العطاء، وأنه يدبر أمر الرزق بما لا يخطر ببال أحد، فسخر جمع الثمار لهم، ناضجة طيبة، لينعموا بها في مدينتهم مكة المكرمة. فمنذ أن حَرَّم سبحانه وتعالى مكة، وهي المكان الآمن، والمكان الذي تُجبى إليه الثمرات من كل مكان، نشاهده، ويشاهده كل من دخل مكة حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة.

والنعمة الثانية التي تستوجب عبادته هو تحقق الأمن لهم ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ فكانت القبائل يغير بعضها على بعض إلا مكة في أمان من الله تعالى، لما عرفوا من واقعة الفيل التي ذاع أمرها بين العرب. كما قال تعالى عن دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ فهذا الطلب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدل على بُعد تفكيره واهتمامه وحرصه عليه الصلاة والسلام، إذ لم يفكر في نفسه فقط، بل تجاوز حرصه إلى أهل هذا البيت، ولكل من يقصده، بأن يكون آمناً من كل ما يُخاف منه، حتى تحصل الطمأنينة لمن فيه ولمن يزوره، وكذلك أن يرزق أهله من الثمرات،

وقال الله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا ﴾ فلقد جعلنا وصَيَّرناً لهذا البيت الحرام خصائص ومقاصد دينية عظيمة، فأولها أنه ﴿ مَثَابَةٗ ﴾ أي يثوبون إليه، قاصدين إليه، ليتحصلوا على منافعهم الدينية والدنيوية، ويرجعون إليه مرة بعد مرة، لتحصيل هذه المنافع التي لا تنقطع. ففيه الحج والعمرة والطواف، وفيه منافع التجارة، التي كانت منها رحلة الشتاء ورحلة الصيف. وثاني هذه الخصائص ﴿ وَأَمۡنٗا ﴾ فيأمن فيه كل أحدٍ في أمر دينه ودنياه. ولذلك عَظَّمَهُ الناسُ حتى وهم في شرك، فكان أهل مكة يعظمونه ويحترمونه وهم في شركهم، حتى ليجد الرجل قاتل أبيه فلا يخيفه. وزاد تعظيماً ببعثته صلى الله عليه وسلم، وهذا يفيد أهمية تعظيم هذا لبيت، بقصده وزيارته للعبادة، وبتعظيم حرمته وإجلاله، وحفظ أمنه من كل ما يخل به، وتعظيمه من أن يعصي الله تعالى فيه، مهما صغرت المعصية في عين العاصي، لأن عظمته أرفع من ذلك.

فهي نعمة جلية، وآية واضحة بما أنعم الله تعالى به عليهم، فاستوجب ذلك شكرهم لله تعالى بطاعته، وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والامتثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة قريش. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.